كتاب يؤلّفه قرّاؤه

اشتهر الأمريكيون بالبدع والأفانين التى نسميها فى لغتنا الدارجة بالتقاليع .

وكثير من هذه البدع جهد عقيم وعبث فارغ ووقت ضائع ، ولكنها لا تخلو مع هذا من بدع نافعة فى بابها ، ومنها بدعة الاستفتاء فى المسائل الاجتماعية أو الأدبية أو الإنسانية على عمومها ، فإن هذا الاستفتاء كثيرًا ما يكشف للمهتمين بالشئون العامة عن حقائق لا يستبينونها من طريق غير طريقه ، ولا سيما الاستفتاء المنزه عن المقاصد الخفية التى يسترها من يرمون إلى غاية يهدون إليها بتزييف الأسئلة والأجوبة ، حيث لا يعلم أصحاب الآراء المسئولون ماوراء ذلك التزييف .

من هذه الاستفتاءات سؤال وجهته إحدى دور النشر إلى المشتغلين بالأدب تسألهم عن أهم الأدباء الأحياء فى رأيهم ، وتعلنهم فيه أنها تعتمد أجوبتهم لاختيار الصفوة المنتقاة مما كتبه أولئك الأدباء وتحاول أن تجعل كل أديب يختار ما يراه نموذجًا صالحًا لتفكيره وكتابته ويحصره ما استطاع فى بعض صفحات .

وقد أرادت الدار الناشرة باستفتائها هذا أن تصدر كتابًا يؤلفه قراؤها أو يوجهون الكتّاب إلى تأليفه ، فنجحت فيما أرادته وجاء الكتاب فى أكثر من ألف ومائة صفحة جامعة لأنواع من الأدب الحى فى اللغات الغربية وبعض اللغات الشرقية ، وقلما تجتمع هذه الأنواع المتعددة بين دفتى كتاب .

ندع من عيوب هذا الاستفتاء أن دار النشر قصرته على القارة الأمريكية والقارة الأوربية ولم تتناول فيه القارة الآسيوية إلا فى نطاق محدود من الهند والصين ، ولم تتناول فيه القارة الإفريقية على الإطلاق ، لأنها عولت فى سؤالها

على المعلوم لقراء اللغات الغربية من الكتب المترجمة إليها ، وهو فى القارة الإفريقية نادر أو معدوم .

وندع من عيوب ذلك الاستفتاء أيضا أنه استولى على حصة الأسد للأدباء المعروفين فى الولايات المتحدة ، فكان المختارون منهم اثنين وثلاثين كاتبًا وشاعرًا والمختارون من العالم كله نيفًا وسبعين !

فإذا التمسنا للناشرين عذرهم من كثرة المطلعين فى بلادهم على الآداب الأمريكية الشائعة فالواقع الذى استغربناه أن نتيجة الاستفتاء قد جاءت مطابقة لميزان النقد والأدب كما استقر عليه الرأى فى حكم الخبراء الثقات ، ولم تكن النتيجة خلطًا من أخلاط السوق كما يتفق أحيانًا فى كل استفتاء شائع ، يرجع فيه السائلون جزافًا إلى غير المختصين .

فكانت القائمة الأولى التى اتفقت عليها أكثر الطوائف لا تعدو « المهمين » حقًا من أدباء العالم الأحياء فى وقت الاستفتاء ، وهم أمثال برناردشو وأندريه جيد وتوماس مان وبرتراند رسل والدوس هكسلى واليوت ومترلنك ولن يوتانج وسجريد أوندست وارتيجا أى جاسيت وأوريبندو الهندى وأمثالهم الذين يقاربونهم فى الطبقة وينتمون إلى أمم العالم الكبيرة أو الصغيرة .

وقد كان بين المختارين أناس حصلوا على جائزة نوبل العالمية وأناس لم يحصلوا عليها ولكنهم فى نظر المحققين أرجح فضلا ممن حصلوا عليها بشروطها وهى « خدمة السلم » ولو لم تكن هذه الشروط مقترنة بالرجحان الأعلى فى ميزان الآداب .

لقد كانت هذه النتيجة عجيبة فاستغربناها كما تقدم ، لأن تمحيص النقد كما هو معلوم مزية من مزايا البحث الهادئ لم تعهد فى الجماعات ، وهى على دأبها أدنى إلى الصخب والمجاراة وأبعد من الأناة والاستقلال ، وكل ما يقال عن عيوب الانتخاب يمكن أن يقال عن عيوب الاستفتاء إذا صح أن القياس مطرد فى الحالتين .

فهل فى الأمر شذوذ ؟ وهل فيه نقض للمعهود ؟ أو هو محض اتفاق لا يقاس عليه ؟

يبدو لأول وهلة أن فى الأمر شذوذًا عن القاعدة العامة ، وأن صواب النتيجة فى هذا الاستفتاء محض اتفاق .

ولكننا إذا تمهلنا بعد الوهلة الأولى ظهر أن القاعدة غير القاعدة وأن النتيجة من ثم غير النتيجة الطبيعية فى موقف الانتخاب والاستفتاء .

فأول ما هنالك من وجوه الاختلاف أن السؤال موجه إلى آحاد متفرقين يجيب كل منهم عليه بعد الروية والتأمل على انفراد ، ولم يكن سؤالا موجهًا إلى جماهير يلقاهم وهم مأخوذون بالضجة العاجلة فى حالة من حالات « التنويم الجماعية » التى لا يفيق منها أخلاط الناس فى حالة الاجتماع .

وهناك من وجوه الاختلاف أن المسئولين كانوا جميعًا من ذوى الاختصاص فى شئون الفن والأدب ، فمنهم نقاد المجلات المستقلة وأعضاء أندية القلم وكتّاب الموسوعات الأدبية وأساتذة التاريخ الأدبى وأمناء المكتبات الكبرى وذوو الشهرة الموقرة فى ميادين الثقافة والاطلاع .

ولا نزعم أن هذه الكفايات المتفق عليها هى العصمة التى صانت ذويها من الخلط فى تقدير الكتب والكتّاب ، فإن كفايات مثلها قد تلتقى لانتخاب رئيس لها أو مندوب عنها فلا تهتدى إلى أفضل المختارين ، بل تهتدى إلى شرهم وأقلهم علمًا وكفاية إن صح أن يوصف هذا الاختيار « بالاهتداء » .

ولكن الذى نعنيه أن « الانتخاب » لم تكن وراءه مصلحة عامة أو خاصة تضلل المسئولين فلا يهتدون إلى الصواب ، وأن طريق المحاباة هنا مسدود لأن المسئولين لا يسلكونه متفقين ولا متفرقين ، فإذا حدث بالمصادفة أن أحدهم أراد أن يحابى واحدًا فهو لا يحابى عشرة ولا عشرين . وإذا جاءت المحاباة كلها مصادفة فالمصادفة هنا والتقدير الصحيح يستويان ، إذ لا يتفق أن يعتمد المسئولون المتفرقون محاباة أديب واحد إلا إذا كانوا يختارونه سواء بالمحاباة أو بغير محاباة .

لهذا اختلف الحكم فى نتيجة هذا الاستفتاء فجاءت مطابقة لميزان النقد الصحيح ، وهكذا تجىء كل نتيجة فيما نعتقد إذا توفرت لها هذه الشروط مجتمعات : وهى التجرد من المصلحة والهوى ، وإصدار الرأى فى حالة التأمل

والروية على انفراد ، وتوجيه السؤال إلى ذوى الاختصاص ممن يستقلون بالرأى والنقد ولا ينساقون فيهما مع الشيوع والضوضاء .

وفحوى ذلك كله أن توفير أسباب العصمة للانتخاب السياسى مستحيل أو قريب من المستحيل . لأن الشرط الأول فيه أن يكون صاحب المصلحة هو صاحب الحق فى إبداء الرأى أو فى الحصول على الآراء ، فمن كان ذا حق فهو ذو مصلحة ، ومن كان ذا مصلحة فبينه وبين الحق المجرد حجاب كثيف لا تقوى على اختراقه جميع الأنظار .

وحسبنا هذا الوجه من وجوه الاختلاف إذا شئنا أن نقف عنده ، ولكنه على هذا ليس بالوجه الوحيد للتفرقة بين أسباب الحكم المنزه وأسباب الحكم المشوب بالأهواء ، فقد اقترن به فقدان الكفاية والاختصاص فى الأمر المسئول عنه ، لأن الناخب السياسى لا يملك الكفاية والاختصاص فى جميع الأحوال ، وقد اقترن به من الجهة الأخرى فقدان الحيدة والاتزان ، لأن الجماهير إذا اجتمعت فى مكان أو تلاقت على الهوى فهى منحرفة لا محالة عن الحيدة محرومة لا محالة من الاتزان .

ولو أننا تخيلنا النتائج السياسية كتابًا يؤلفه قراؤه على الطريقة التى أشرنا إليها لما أمنا أن تجيء نسخة منه كهذيان المجنون ونسخة أخرى كحكمة المصلحين ، وأن تقذف مطبعته بالقراءة الرشيدة فى لحظة وتقذف بلزوميات أبى العلاء فى لحظة أخرى ، مع الخلط بين السطور والكلمات هنا وهناك .

فحيث لا مصلحة لا حق فى الرأى ، وحيث المصلحة لا يكون الرأى والحق متفقين بغير معجزة من معجزات التوفيق .

وصدق من قال من حكمائنا العوام .. « صحيحًا لا تكسر ومكسورًا لا تأكل وكل حتى تشبع ... » .

ويالله من شبع تخوى به البطون والرءوس .

المناهج فى فن القصة

شرح لى أديب شاب فى الإسكندرية ما يساوره من القلق على مستقبله وطلب منى رأيًا يستعين به على توجيه نفسه ، فكتبت إليه فيما كتبت أن يستكثر من قراءة المجاميع التى تنشر بعنوان « أحسن القصص » فى اللغات الأوربية ، وقلت له : « إن الاطلاع على المناهج المنوعة التى تختلف باختلاف الأمم والأقلام والعبقريات والأزمنة لازم أشد اللزوم قبل الاستقرار على أسلوب تكونه لنفسك وتفرغ من تكوينه فى مستهل نشأتك الفكرية » .

وقد جاءنى منه خطاب يقول فيه : « .. مع أنى فهمت إرشادكم لى بالاستكثار من قراءة القصص إلا أن كلمة المناهج المنوعة وقفت حائلا بينى وبين فهم ما ترمون إليه .. لأنى فهمت تلك الكلمة وفسرتها على أنها مرادفة لكلمة المدارس الأدبية التى تنقسم إلى رومانتية وكلاسيكية وواقعية ونفسية إلخ .. » .

أحمد محمد أحمد

رأس التين - إسكندرية

والسؤال يتعلق بموضوع عام يهتم به المعنيون بفن القصة ويحتمل وجهات للنظر يشترك فيها القراء ، فإجابة الأديب صاحب السؤال عنه هى إجابة لكل من يهتم بإدارة وجوه النظر فى هذا الموضوع .

ونبدأ فنقول إننا لا نعنى بالمنهج ما يعنونه بالمدرسة الفنية أو الأدبية ، ولكننا نعنى به أسلوب كل كاتب فى قصته أو مقاله وهو الأسلوب الذى لا يتشابه كاتبان فيه إلا كما يتشابه الوجهان فى الملامح الواحدة ، فربما انتمى عشرون

قصاصًا إلى مدرسة فنية شاملة ولكل منهم مع هذا منهج يخالف به مناهج الآخرين .

فمن القصاصين مثلا من يجعل معوله على الحادثة أو الواقعة فلا تطيق أن تقرأ له قصة تخلو من حادثة مروعة أو ذات خطر فى حياة أبطالها ، وهو فى هذا الباب صاحب قدرة بارعة لا يستهان بها فى تمثيل الحوادث واستكناه خفاياها والانتقال بها مع أطوارها المتعاقبة إلى غاياتها .

ومنهم من يجعل معوله على « الشخصية » يحللها أو يعرضها لقارئه باللون الذى يعجبه ويستهويه ، وقد يكون الكاتب خبيرًا بتحليل الشخصيات أو لا تكون له خبرة بالتحليل ، ولكنه مقتدر على إبرازها على صورة تسحر الأبصار وتدعوك إلى العناية بها كما تعنى بمن تعرفهم من الصحب أو الأقربين .

ومنهم من يعول على التشويق ويعتمد التقديم والتأخير فى سرده لأخباره ومواقفه تعليقًا لهوى الاستطلاع فى نفوس القراء الذين يؤخذون بهذا الأسلوب .

ومنهم من يطرح التشويق جانبًا ويخيل إليك أنه يتعمد الإملال أنفة أن يظن به أنه يشغل باله بتسلية القراء ويصطنع الحيلة للنزول عندهم بمنزلة الرضا والإقبال ، ولكنه يعوض التشويق بالدقة والجد فى التزام الحقائق وبلاغة التعبير .

وبعضهم لا يغفل مرة عن البيئة المكانية أو الزمانية التى تقع فيها حوادث القصة ويغدو فيها أبطاله ويروحون ، فلا يسهو عن وصف روضة أو وصف شاطئ أو وصف ليلة من ليالى الصيف أو الشتاء ولا يستطرد فى سياق القصة حتى يقف بك لحظة هنا ولحظة هناك ليحدثك عن الطبيعة والجو وعن الأرض والسماء ، والماء والهواء .

وبعضهم لا يلتفت إلى شىء من هذا كأنه يعيش مع أبطاله « فى الداخل » ولا يهمه ما يقع خارج النفس أو ما يحيط بهذا الخارج من منظور ومسموع ، وهو لا يستغنى عن وصف البيئة إلا إذا تهيأت له قدرة خارقة على نقل المؤثرات النفسية بغير هذه الوسيلة ، وأحسبه يشبه الموسيقى القدير الذى يوقع لحنه على

وترين من أداة واحدة وغيره لا يقدرون على توقيع ذلك اللحن بأداة ولا بعدة أدوات .

ومن القصاصين من يملك مجاله كله فى مواقف البطولة ولا يأتى بشئ فى مواقف الغرام أو مواقف الحزن والفجيعة ، ومنهم من هو على نقيض ذلك يصاحبه التوفيق فى المواقف المحزنة ولا يصاحبه فى مواقف الحماسة ، أو الغرام .

وقد يكون القصاص مولعًا ببعض العيوب الخلقية أو الاجتماعية يتتبعها ويوشك أن يخلقها خلقًا إن لم يجدها ماثلة فى طريقه

وقد نرى هذه العيوب بعينها مشروحة فى قصص كاتب آخر ولكنك لا تخطئ أن تلمح فى شرحه لها دلائل الأسف والامتعاض لعثوره على تلك العيوب فى النفوس البشرية متفرقات أو مجتمعات .

ومن الكتّاب من يحسن تصوير العلاقات بين أبطال القصة ولا يحسن تصوير الأبطال أنفسهم . ومنهم من يعطيك الأبطال معروفين موصوفين ولا يعطيك خبرًا شافيًا عما بينهم من تجاوب الشعور وما فى بعضهم من تكملة لبعض أو اشتراك فى تكوين بيئات المجتمع ، وعلى وضوح هذا النقص عند أناس من كتاب القصة تراهم ميسرين لتعويضه بما يمتازون به من الملكات النادرة . وإلا أسقطهم ذلك النقص من عداد الكتاب الموهوبين .

هذه وأمثالها هى المناهج التى نعنيها . وهى كما يرى القراء شىء لا حصر له ولا نهاية . وقد يكون كل كاتب منهجًا قائمًا بنفسه لا يدخل مع غيره فى زمرة « منهجية » واحدة ، خلافًا للمدارس الفنية والأدبية فهى معدودة محدودة يجتمع المئات من الكتاب والفنانين فى كل زمرة منها .

على أن التقاء الكتاب والفنانين فى مدرسة جامعة تقسيم يأتى لاحقًا ولا يصح أن يأتى سابقًا إلا فى حالة واحدة ، وهى حالة التقليد والتكلف والاصطناع .

ونريد بالتقسيم اللاحق أن الكاتب يكتب والفنان يبتدع ثم يأتى النقاد والقراء فيجمعون طوائف الكتاب والفنانين إلى هذه المدرسة أو تلك على حسب التقارب فى الأمزجة والقرائح والموضوعات وليس من المعهود فى أساطين الأدب

والفن أن يبتدئ أحدهم قائلا : هأنذا سأكتب على أسلوب هذه المدرسة وألحق نفسى بزمرتها .. فإن الذى يقول ذلك إنما يوطن نفسه على التقليد والاتباع ولا يرسل قريحته على السجية والحرية مطلقًا غير متقيد ومبتكرًا فى طريقته غير مسبوق إلى تلك الطريقة .

فلا مدرسة للكاتب باختياره ، ولكنه يخلق على فطرة تناسب هذه المدرسة فيحسب منها مختارًا أو غير مختار .

وقد يسرى هذا على المنهج كما يسرى على المدرسة فى رأى فريق من ثقات الباحثين ، ومنهم هربرت سبنسر العالم الفيلسوف المعروف بمباحثه فى الصلة بين الموسيقى ولهجات الحديث ، فإنه يقرر أن الأسلوب الكتابى كالصوت الذى يخلق مع المتكلم ولا يكسب بالمرانة والاطلاع . وغاية الأمر أن المرانة والاطلاع يعينانه على تهذيب صوته والتوفيق بين مخارجه وما يوائمها من النغمات والألحان . فإذا أضفنا إلى هذه الملاحظة رأى القائلين أن الأسلوب والإنسان شىء واحد أو أن الأسلوب هو الرجل كما يقول الفرنسيون فملاحظة هربرت سبنسر أعم وأشيع مما يخطر على البال لأول وهلة .

وسواء اتفقت الآراء على أن المناهج والأساليب فطرة لا تكتسب أو اتفقت على خلاف ذلك فالإجماع الذى لا شك فيه أن الصوت الطبيعى نفسه يستفيد من سماع الأصوات والمعرفة بفنون التلحين والإيقاع ، فإذا صح أن الأسلوب الكتابى ملكة فطرية كصوت المتكلم فالذى يصدق على الصوت يصدق على الأسلوب والذى يفيد الموسيقى يفيد الكاتب القصاص . وكلاهما يستفيد على اليقين من كثرة المراجعة وغزارة المادة ووفرة المحصول .

بل نحن لا نستبعد أن تتغير الطبيعة بكثرة المشاهدة وإدمان النظر إلى المحاسن المترددة أمام الأبصار ، ولم يبالغ برنارد شو حين قال إن نماذج الجمال فى حقبة من الزمن لا تلبث أن تشيع فى الحقبة التى تليها بالعدوى والاقتباس . وهبه قد بالغ فى هذا فالإكثار من رؤية المحاسن متعة لا تنكر وعصمة من قبول الردىء والذميم . ويظل صحيحًا على الدوام أن الإحاطة بالأساليب والمناهج المنوعة أفضل من الجهل بها والعكوف على القليل منها .

المثل الأعلى فى عالم الحقيقة

ذكرى النقراشى تراث خالد يعلو على أفق السياسة ، ويفيض من نطاق الوطنية المحدود إلى نطاق الإنسانية الذى يحيط بجميع الحدود .

ذكرى النقراشى أنفع الذكريات فى هذا الزمن ، لأنها الترياق الذى يعالج داء الزمن بل يعالج شر أدوائه ، وليس للزمن الحاضر داء شر من التهالك على المنفعة ، والجنون بالثراء . والإيمان بقيم المادة وحدها دون كل قيمة للخلق وللضمير .

ذكرى النقراشى ترياق من هذا الداء الذى سرى واستشرى فى كل مكان وفى كل أمة ، فهذه الأزمات التى تتحرج فى السياسة العالمية . وهذه الفتن التى تنهش النفوس بأنياب الحسد من جانب وأنياب الطمع من جانب ، وهذه التخمة التى يتأذى بها قوم حيث يتأذى بالجوع قوم آخرون ، وهذا الشقاق فى غير جدوى بين الأمم والآحاد وبين الرعاة والرعايا . وهذه البلايا كلها داء واحد من جرثومة واحدة : هى جرثومة العصر الذى نحن فيه ، جرثومة المنفعة والإيمان بالذات والكفران بالواجب والفداء .. وذكرى النقراشى رحمه الله هى الترياق من هذا الداء .

من هذا الشهيد الذى عاش من الفقراء ومات من الفقراء ؟ من هذا الرجل الذى استطاع مالا يستطاع فهزم الغواية التى لم يهزمها أحد من الناس ؟ هذا الشهيد الفقير هو رئيس وزراء مصر وحاكمها العسكرى فى إبان السيطرة على أموال الدولة وأموال الأعداء .

هذا الشهيد الفقير هو وزير الخزانة فى إبان التصدير والإيراد ، والإثراء

مما تطلبه البلاد أو ما يطلب من البلاد .

هذا الشهيد الفقير هو صاحب الوزارة الكبرى التى يباع نفوذها ، لو شاء بالألوف وعشرات الألوف .

هذا الفقيد لو مات وعنده عشرة ملايين لما استكثرها طلاب الكثير – قد مات وليس عنده شىء .. وقد خرج من كل شىء ليفدى بلاده بالراحة والروح والنعمة والثراء .

إن العظات بالكلمات كثيرة يسيرة ، ولكن العظمة بالمثال المشهود الماثل أمام الأنظار واحدة لا تتعدد على هذا المثال ، واسمها هو اسم صاحب هذه الذكرى الخالدة ، فاسم النقراشى عظة تغنى عن الأسفار الضخام من عظات الكلام ، وعظات الأرقام .

لقد كان الناصحون إذا نصحوا بالنزاهة والعفة قيل لهم هذا كلام قديم مهجور ، وحلم من أحلام المخدوعين فى غابر العصور ، فإذا قيل « النقراشى » فقد بطلت حجة المكذبين وصدقت حجة المؤمنين ، وقام المثل أمامهم شهادة عيان لا يتطرق إليها الإفك والبهتان ، فلا يمارى فى هذا المثل الأعلى إلا من يريد المراء . إنه حقيقة شاخصة للبصر والسمع ، ساطعة كالشمس فى كبد السماء .

تلك ذكرى الشهيد خليقة بالإحياء فى زماننا ، وهو أحوج الأزمنة إلى هذه الذكريات ، فإذا كانت الذكرى بالأعمال فما أحوج المصريين خاصة إلى عبرة التذكار ، وعزاء التذكار ، وواجب التذكار .. ما أحوجهم إلى ذكرى النقراشى وكل شىء بين أيديهم يذكرهم بأعماله ويعود بهم إلى أقواله وفعاله وخصاله ، وبينها وبين حاضرهم ما بين النقيض والنقيض ، بل ما بين الأوج والحضيض .

يذكرونه وحقوق البلاد منكوسة لا حديث فيها قبل التسليم بالاحتلال ، وهو الذى قرر الجلاء مبدأ مسلمًا ، وأنجز الجلاء عن العواصم معجلًا . واتخذ للجلاء عن جميع البلاد موعدًا مشروطًا فى سجل مرقوم .

يذكرونه وسمعة البلاد مضغة فى الأفواه ، وهو الذى رفعها بين الأمم وبوأها مكانها العلى فى مجتمعات الدول والحكومات .

يذكرونه والسودان فريسة النزاع على الوظائف والكراسى ، وهو الذى سمعنا على عهده صوتا لشعب السودان لم يكن مسموعًا قط قبل ذلك الأوان .

يذكرونه والغلاء آخذ بالأكظام ، وهو الذى أخذ بأكظام الطامعين من المستغلين وأبلغ « بطاقة » التموين إلى كل كوخ من أكواخ المستضعفين .

يذكرونه والعجز يهد أركان الحكومة ، وقد كانت قدرته فى الإدارة والتدبير قدوة للعاملين وأساسًا للبناء المتين .

يذكرونه ومصالح الدولة نهب مقسم بين الأصهار والأقارب ، وبين أتباع هذا الصهر وأشياع ذلك القريب ، وهو الذى جعل المصريين أسرة واحدة لا فضل فيها لأحد على أحد بغير العمل النافع والكفاءة البينة والحق المعروف .

يذكرونه وقد ضاع الحياء ، وهو الرجل الذى كان يعرف الحياء من الله كأنه يراه فى كل لحظة بعينيه ، ويسمعه فى كل قضية بأذنيه ..

ضاع الحياء فما من أحد يظفر بمصلحة لغير قرابة أو مصاهرة ، ثم يقرنون هذه الفوضى بذلك الميزان السماوى الذى لا يختل قيد شعرة ، فلا يظفر فيه بالمكافأة غير العمل الراجح فى حساب الدولة والأمة والرجحان الذى لا شبهة فيه لقرابة أو شفاعة أو تحزب أو محاباة .

تسعة وعشرون استثناء فى خمس سنوات مضت جمعوها من أوراق الدولة وبين أيديهم أسرارها وخفاياها .. ثم قالوا ها نحن أولاء سواء ، ولا فارق إذن بين استثناء واستثناء !

تسعة وعشرون منهم من طهر الديار من العصابات ، ومنهم من اتقى الفتنة التى أوشكت أن تعصف بالألوف فى أقصى الصعيد ، ومنهم من رشحه الخصوم للوزارة فوق مناصب الدواوين ، ومنهم الخبير العالمى بشهادة الغرباء قبل المصريين ، وليس منهم قريب ولا محازب ولا ذو شفاعة فى السر ولا فى العلانية ، ثم يقال إن هذا الاستثناء كذلك الاستثناء ، وإن إدخال الأكفاء للبلاد كاختيار المئات بعد المئات ، لغير كفاءة ولا مزية إلا أنهم من ذوى القرابة والشفاعات .

يذكر المصريون اسم النقراشي كما يذكرون النقيض بالنقيض أو يذكرون الأوج فى الحضيض ، ويذكرونه تراثًا وطنيًا يهيب بهم إلى الصلاح والحرية ، وتراثًا إنسانيًا تعتصم النفوس بقدوته فى عصرنا هذا ، وفى جميع العصور .

نذكره والله ونستغفر الله ..

نذكره ونستغفر الله لهذه المقارنة بين عهده وعهود غيره . نذكره ونعتذر إليه ، وعذرنا إليه أن الذكرى قد تنفع المؤمنين ، وأن الله مع الصابرين .

obeikandl.com

تقويمات جديدة للبيع

كان « لوباردى » ثالث ثلاثة من قادة الفكر الذين اشتهروا بالنقمة والتشاؤم فى الآداب الأوربية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر .

كان أحدهم إيطاليًا وهو لوباردى ، وثانيهم ألمانيًا وهو شوبنهور ، وثالثهم إنجليزيًا وهو بيرون .

كان شوبنهور فيلسوفًا وبيرون شاعرًا . أما لوباردى فكان مزيجًا من الفيلسوف والشاعر ، وكان يزيد على الفلسفة والشعر بملكة الأدب وروح الفكاهة .

لم يبلغ من الفلسفة مكان شوبنهور ، ولم يبلغ من الشعر مكان بيرون ، ولكنه امتاز فى فن الحوار بقدرة عالية لا يفوقها أحد وإن جاراه فيها آحاد معدودون .

وأكثر محاوراته فلسفة وفكاهة ، كالحوار بين الشمس وساعة النهار الأولى ، والشمس مضربة عن الحركة لأنها صدقت مذهب « كوبرنيكس » الذى أوجب على الأرض أن تدور حولها ، فعلى الأرض إذن أن تأخذ نصيبها من التعب والدوران .

ومن محاوراته حوار بين « أطلس » حامل الكرة الأرضية وبين رسول السماء إليه ، وفى هذه المحاورة يهم « أطلس » بأن يضع الكرة تحت إبطه بدلاً من حملها على كتفيه ، لأنها خفت فى الوزن حتى ليوشك أن تتقاذفها الأيدى .

ومن محاوراته حوار بين الطبيعة وروح إنسانية تساق إلى الحياة فتقول للطبيعة : ماذا اجترحت قبل أن أحيا حتى أعاقب بمثل هذا الجزاء الأليم ؟

ومنها هذا الحوار الذى كتبه فى مطلع سنة من السنين ، ويصلح لأن يكتب فى

مطلع كل سنة ، على مذهب لوباردى أو على مذهب غيره من الحكماء المتشائمين والمتفائلين .

بائع التقويمات الجديدة ينادى بأعلى صوته فى الطريق : تقويمات جديدة للبيع . سنويات جديدة للبيع .. ! ويستوقف عابرًا يسأله : ألا تحتاج أيها السيد إلى تقويم جديد ؟

فيسأله السيد : أتعنى تقويم السنة الجديدة ؟ فيجيبه : نعم .. ويطيب للسيد أن يداعبه فلا يحب أن يشترى منه إلا على شرط أن تكون السنة الآتية خيرًا من السنة الماضية . فهل هى كذلك ؟

يقول البائع طبعًا ياسيدى : هى خير من السنة الماضية بيقين !.. فلا يشترى السيد بل يعود سائلًا : مثل أية سنة ؟ أمثل السنة التى قبلها ؟ أمثل السنة السابقة لها ؟ فيلوح على البائع أنه لن يبيع التقويمات إذا كانت السنة المقبلة كواحدة من السنوات القريبة ، لأنها جميعًا لا تحتمل المغالطة فى حقيقتها ، وهى حقيقة لا تدل على الخير ولا تفتح باب الرجاء .

يلمح السيد تردده فيسأله : ألا يسرك أن تكون السنة المقبلة كإحدى هذه السنوات الماضية ؟ فيجيبه البائع : بلى ياسيدى .. لا يسرنى أن تكون مثلها !

ثم يجرى بينهما هذا الحوار الوجيز :

السيد : كم سنة مضت عليك وأنت تبيع التقويمات ؟

البائع : عشرون سنة !

السيد : أى هذه السنين تود أن تشبهه السنة المقبلة ؟

البائع : أنا ؟ .. لست أدرى والله .

السيد : ألا تذكر منها سنة على الخصوص كانت تلوح لك كأنها سنة سعيدة ؟

البائع : الحق ياسيدى أننى لا أذكر منها سنة سعيدة .

السيد : ومع هذا تحسب أن الحياة شئ جميل .. أليست كذلك ؟

البائع : كلنا نعلم هذا ياسيدى .

السيد : أتود إذن أن ترجع هذه السنين عودا على بدء ؟ أتود أن تستعيد حياتك كلها من ساعة الميلاد ؟

البائع : آه ياسيدى .. حبذا لو كان !

السيد : ولكنك إذا عدت كما كنت بغير تبديل ولا تحسين فى أيامك فهل تظن هذه العودة مما يرضيك ؟

البائع : كلا .. ما أرانى راغبًا فى مثل هذه العودة .

السيد : إذن حياة من هى التى يسرك أن تحياها كصاحبها ؟ أحياتى أنا أم حياة الأمير أم حياة كائن من كان ممن لو سألتهم هذا السؤال لأجابوك بمثل ما تجيب ؟ ألا تظن أن الناس جميعا يكرهون أن تعاد إليهم الحياة كما عرفوها بغير تبديل ولا تحسين ؟

البائع : ذلك ما أعتقد ياسيدى .

وينهى لوباردى من الحوار على أننا جميعا نتمنى المصادفة التى لا نعرفها ، ونتوهم أننا نحب حياتنا ونحن فى الحقيقة لا نحبها ، بل نحب خداع النفس بما قد يكون كأنه سيخالف ما كان .

ومع هذا يسأل السيد بائع التقويم عن ثمنه وينقده إياه بغير مساومة ، فلا يجد البائع دعاء يشكره به على سخائه خيرًا من أن يتمنى لقاءه فى مثل هذا الموعد من السنة المقبلة .! وينطلق بالنداء على التقويمات الجديدة للبيع ، والسنوات الجديدة للسنة « السعيدة !» .

* * *

إن الحياة كلها تتكلم فى اعتقاد لوباردى بلسان ذلك البائع الصادق ، ولوباردى هو القائل : « ليس الموت شرًّا لأنه يطلقنا من إسار جميع الشرور ، وإذا حرمنا شيئا من النعيم فهو يمحو ألم حرمانه ، إذ يريحنا من اشتهائه والحسرة عليه ، أما الشيخوخة فهى الشر الأكبر ، لأنها تحرم الناس جميع المسرات وتتركهم مع هذا يشتهونها ويقطعون الأنفس عليها حسرات ولا يظفرون بغير المتاعب والأوجاع ، والشيخوخة على الرغم من هذا مشتهاة والموت على الرغم من هذا مخيف مكروه !» .

ومذهب لوباردى فى جملته كمذهب شوبنهور ، وكلاهما لا اختلاف بينه فى فحواه وبين مذهب بيرون العربيد المستسلم لغواية المطامع والشهوات .

ويقال إن هذا التشاؤم آفة من آفات القرن التاسع عشر فى أوائله على التخصيص ، لأنها كانت حقبة مشئومة متلاحقة الحروب والثورات . فهل أصاب نقاد المذاهب الفكرية فى هذا التعلل أو هذا التعليل ؟ وهل من الحق أن كل حقبة تكثر فيها الحروب والثورات تجنح بكتابها وحكمائها إلى التشاؤم والسخط على الحياة ؟

لا نخالهم مصيبين ، فإن عصور الحروب والثورات كثيرة فى التاريخ القديم وفى التاريخ الحديث ولم تعرف كلها بفلسفة التشاؤم ولا بالسخط على الدنيا ، بل لعلها أخرجت فى عالم الأدب أجمل آثار الفن والأدب وأقوى دلائل الثقة والإيمان بجدوى الحياة .

والذى نراه أن الإنسان لا يتشاءم إذا عرف ما يعتقد وعرف مع الاعتقاد ما ينبغى أن يعمل ، ولهذا يجاهد دعاة الأديان ومذاهب الإصلاح ويتعرضون للموت فى الثورات والفتن وهم غير متشائمين ولا ساخطين ، وقد يتشاءم الناس فى إبان السلم إذا رانت عليهم الحيرة فلم يعرفوا ما يعتقدون ولم يعرفوا وجهتهم إلى العمل أو وجهتهم إلى الكفاح والجهاد .

شر من فقدان الحياة أن نفقد الثقة بالحياة ، فلا تشاؤم فى عصور الحروب لأنها وإن كانت حروبًا يهلك فيها الألوف ، وقلما تخلو من التشاؤم عصور السلم إذا أمن الناس على حياتهم ولم يعلموا لها وجهة تتجه إليها .

كن فى أمان ! كلا .. بل كن فى إيمان ، فمن أمن وهو لا يفقه للحياة معنى فهو فى زمرة المتشائمين ، ومن آمن بمعنى للحياة فهو متفائل وإن كان على خطر . بل لعله يقدم على الخطر لأنه مطمئن إلى الإيمان .

ونحن على أبواب سنة جديدة . فإن كانت خيرًا فلتكن سنة حرب أو سلام ، ولتكن على الحالتين سنة إيمان .

حتى القطب ..

دلائل التحول والتغير والزوال ظاهرة فى كل مكان يستطيع من يفتح عينيه أن يراها حيث شاء ، ولكنه لا يستطيع فى كل مكان أن يتجرد من حياة الحى الزائل ليتشح بحياة الخالدين وينظر إلى الدوام والزوال بالنظرة الباقية كأنه يلحظها فى مثل اللمحة البارقة بأعين التاريخ ، وقد يكون هذا الخاطر مقصورًا على الأماكن التى تقترن فيها المعالم الباقية والأطلال الدارسة ، كما تقترن فى أسوان التى أعيش فيها الآن .

هذه أماكن قد ألف الناس أن يقرءوا عنها فى كتب التاريخ منذ ألفى سنة ، وقد ألفت أن أقف على معاهدها حيث وقف آباء التاريخ أو أجداده السابقون ! فيخيل إلىّ أننى التقيت بهم فى الزمان كما التقيت بهم فى المكان .. وما أظن أن مادة العمر أصح كثيرًا من مادة ذلك « التاريخ » الذى يستعاد فى تلك اللمحة الخاطفة من لمحات الخيال .

قيل قديمًا إنهم عرفوا من ظلال أسوان أن القطب نفسه سوف يختفى عن الأبصار فى سنة من السنين ، والقطب كما تعلم هو عنوان الثبات الذى يهتدى به الحائرون المضللون فى البحار والقفار .

فالقطب والظلال سواء فى خاتمة المطاف بالنظر إلى المتطلعين إليها من هذه الكرة الصغيرة ، وأبو العلاء مقتصد ولاشك حين قال عن زحل والمريخ إنهما ذاهبان أو منطفئان !

قيل إن الظلال كانت تختفى بأسوان عند حلول الشمس فى برج السرطان ، ثم تغيرت الحال أو تغيرت مساقط الظلال ، فتنبهوا من هذا إلى انحراف محور

الأرض عامًا بعد عام ، وأنها ستمضى فى هذا الانحراف حتى يحتجب موقع القطب عن الناظرين من فوقها ، ولكنها بحمد الله لا تضل الطريق يومئذ فى « ملاحتها » المترامية بين أجواز الفضاء ، لأنها تعودت أن تسبح فيها وهى عمياء !

وعلى ناحية من البلد هيكل يقال إنه من هياكل الشعرى اليمانية التى رصدها المصريون على الأرجح قبل أن يرصدها أحد من المشارقة أو المغاربة ، لأنهم كانوا يؤرخون بها السنة ويعرفون بها موعد الفيضان كلما طلعت قبل مطلع الشمس بعد احتجابها فى مجاهل الفضاء .

هذه الشعرى اليمانية أيضا تقول لنا إن معالم الزمان تتحول كما تتحول معالم المكان ، وسيأتى اليوم الذى تقبل فيه شهور مصر الشتوية مع الصيف وتقبل فيه شهورها الصيفية مع الشتاء ، وهى هى التى تعود الفلاحون من قديم الدهر أن يتخذوها علامة على الفصول ويحسبوها مثالا للثبوت والاستقرار فى أمكانها من دورات الأفلاك ..

كيف كان ذلك ؟

قال زعموا أن السنة القبطية على الرغم من أيام الكبيس فيها لا يزال بينها وبين السنة النجمية فرق يقدرونه بإحدى عشرة دقيقة وأربع عشرة ثانية وينشأ منه يوم كامل فى كل مائة وثمانى وعشرين سنة ، فإذا كان هذا الفرق لا يتدارك بشىء من الحساب فسوف يأتى اليوم الذى يحل فيه كيهك وطوبة وأمشير فى أوان الصيف ويخلو مكانها من أوان الشتاء ، وسوف يخسر العالم يومئذ سجعة أو سجعتين من أشيع السجعات فى أحاديثنا الدارجة بين أهل الوجهين ، فلا يقول أهل الوجه البحرى كما يقولون الآن « كياك صباحك مساك ، قم من فرشك حضر عشاك .. » ولا يقول أهل الوجه القبلى كما يقولون الآن « كياح يسكت الكلب النباح » .

وقديما تحول شهر جمادى الذى قال فيه الشاعر العربى :

وليلة من جمادى ذات أنديـة لا تبصر العين فى ظلمائها الطنبا

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة حتى يلف على خيشومه الذنبا

فعاد الشهر أعواما فى حمارة القيظ، وشبعت الكلاب فى لياليه من النباح.

سيأتى يوم كيهك بعد آلاف من السنين ، وتموت تلك السجعات يومئذ إن لم نتدار كها من الآن ، وقد تموت قبل ذلك وعلى الرغم من تدارك الحساب ، إذا تغيرت الألسنة واللغات وتبدل الناس غير الناس والكلام غير الكلام !

وتلك الأيام نداولها بين الناس .

نعم وبين الأماكن وبين الأوقات ، فلا شىء من هذه الأشياء التى نعلمها يعتصم بعاصم قط من ذلك التداول وتلك الدول ، ولولا هذه الغير التى لا تنقضى لما احتمل الأحياء وطأة البقاء .

ومن تداول الأيام بين الأماكن والناس ما أراه الساعة فى هذه الجزيرة التى كانت يومًا من الأيام عاصمة الملك قبل خمسة وخمسين قرنًا أو تزيد على قول أب من آباه التاريخ يدعى « مانيتون » .

كان بناة الهرم قد أرهقوا هذه الأمة ثلاثة أجيال بما سخروهم فيه من بناء هذه الجبال المصنوعة ، فتداعى ملكهم لأنهم أرادوا أن يحرسوه بالبناء الذى لا يتداعى ، ولم يخطر لهم ما خطر للمتنبى فى بعض نبوءاته حيث قال :

أين الذى الهرمان من بنيانه ما يومه ماقومه ما المصرع
تتخلف الآثار عن أربابها حينا ويدركها الفناء فتتبع

كلا .. بل لم يخطر لأولئك الحمقى أن عروشهم من تحتهم ستنهار ، وأن رفاتهم الذى فارقته الحياة سيخرج من تلك القبور الضخام ، فزالت دولتهم وتضعضعت الدولة التى تليها وقامت دولة أسوان تمسك الأمر ما استمسك نحو لحظتين من اللحظات الأبدية التى نسميها بالقرون ، ثم عصف بهم ماعصف بمن قبلهم ومن بعدهم ، وبقيت آثار لهم تترقب يومها الذى لا مناص منه بعد « سين » من السنين ، وكائنًا ما كان العدد الذى تحتويه هذه « السين » فلن يكون فى النهاية إلا بمقدار حرف من حروف هذا الكون الرحيب .

ومن تداول الأيام بين الأماكن والناس فى تاريخ هذه البلاد خاصة أنه ما من إقليم من أقاليمها إلا كان له من الدولة نصيب فى أحد العهود ، فكانت دولات أسوان وطيبة حصة الصعيد الأعلى ، وكانت طينة والعرابة حصة الصعيد الأوسط وكانت دولة أهنامس ومنت حصة الصعيد الأدنى وكانت للشرقية حصة فى الدولة الحادية والعشرين وما بعدها وللدقهلية حصة فى الدولة التاسعة والعشرين وللغربية حصة قبل ذلك وبعد ذلك ، وللإسكندرية حصة تتعزى بها دمنهور وما جاورها من المزارع والبرور .

وهكذا لا يخلو التاريخ من الإنصاف ، وهو ابن الدهر الذى اتهمناه كثيرا بالظلم والإجحاف .

على أنها الوراثة وآفاتها التى لا فكاك من عدواها ، فقد يرجع التاريخ إلى عادات أبيه فيظلم ويجحف ويكذب ويرجف ، وأمامنا هنا مثل من أكاذيبه كأقرب ما تكون فى الزمن الأخير .

هذه الكهوف العريقة التى يسمونها حتى الساعة بكهوف جرنفل فى كتب السياحة .. ستصبح يومًا من الأيام شاهدًا على كذب التاريخ ، إذا صدق التاريخ !

إنهم ينسبونها إلى الحاكم الإنجليزى الذى نقل أخبارها إلى العالم الأوربى قبل أكثر من ستين سنة ، فهل كان القائد جرنفل حقًا هو كاشف تلك الكهوف ؟

إنه هو قد قال ذلك ، وإن كتب السياحة لا تزال تقوله ، ولكن بقية من بقايا المعمرين فى أسوان يعلمون أن جرنفل لم يعرفها إلا بدليل من مرءوسيه الصغار لا يجسر على منازعته الشرف والفخار وقد كان القاضى « محمد مجدى » منصفًا حين رفع هذه الظلامة عن ذلك الدليل المغمور ، فقال فى كتاب سياحته بمصر العليا : « ولكنى رأيت بأسوان شريكاً له يدعى هذا الفضل لنفسه .. وعلمت أنه حضرة مصطفى بك شاكر ، وسمعت منه ومن غيره ، هو فى الحقيقة الكاشف الأول لأمر مغارات الجبل الغربى ، وأنه قد زارها قبل جنابه ، وصحة الحال أنه قد دل جنابه عليها فى سنة ١٣٠٣ هجرية فعرف جناب السردار كيف تشهر

الأسماء ومن أين تؤتى الأبواب .. فصار الاكتشاف لجنابه وتاه اسم مصطفى بك .. وفاز بالشهرة الغنى برتبته ومقامه عنها .. » .

والذى قاله مجدى باشا صحيح سمعناه من الكثيرين ، وما هو فى واقع الأمر إلا نموذجًا من نماذج شتى نترسمها فى ملامح التاريخ فنراه أحيانًا فى صورة الولد الكذاب ونضنّ عليه أحيانًا بصورة الشيخ الوقور ، ولكنه إذا مسح ظلمه بيديه وصحح أكاذيبه بلسانه فتلك كفارة ما جناه ويجنيه ، وكم له من جنايات لا تزال فى انتظار التكفير ومن أكاذيب لا تزال فى انتظار التصحيح ، ومن شواهد يلحق فيها الصادق بالكذاب وما كان بما لم يكن فى تقدير ولا حساب ، وكفى من ذلك أن تتحول الأقطاب ، كأنها ظل من ظلال أو قطعة من سحاب .

كاتب أمريكى

منذ أسابيع ، كتبنا فى هذه المقالات عن المناهج فى فن القصة ، وقلنا إن الكتّاب يختلفون فى المنهج وإن كانوا من مدرسة واحدة ، لأن المناهج الفنية كالملامح الشخصية التى تختلف بين الناس وإن نشئوا فى بيت واحد .

وبالأمس قرأت فى الصحف نعى كاتب أمريكى مشهور ، رواياته من أصلح الروايات لاتخاذ الأمثلة على اختلاف المنهج فى المدرسة الواحدة . وهو سنكلر لويس Sinclair Lewis أشهر القصاصين الأمريكيين فى الربع الثانى من القرن العشرين ، وأول من نال جائزة نوبل فى الأدب من كتاب بلاده .

مدرسة هذا الكاتب هى مدرسة النقد الاجتماعى ، أو ربما كان الأصلح أن تسمى مدرسة الهجاء الاجتماعى Social Satire كما يسميها النقاد المحدثون ، وهى مدرسة تشيع فى الولايات المتحدة لأن مادتها فيها غزيرة بالغة فى الغزارة ، إذ هى تقوم على كشف مواضع الرياء والنفاق فى المجتمع ، وليس أكثر من الرياء والنفاق فى مجتمع يعرض لك هوليود من جانب ويعرض لك جماعات التبشير التى تعيش على الحبوس الواسعة والأوقاف الغنية وتحرم فى جامعاتها تدريس مذهب دارون من الجانب الآخر !

غير أن المنهج الذى ينهجه سنكلر لويس فى رواياته لا يتفق مع منهج آخر من مناهج كتّاب القصة الأمريكيين الذين ينتمون إلى مدرسة الهجاء الاجتماعى ، وهم كثيرون .

فها هنا قصة تمثل لك « الشخصيات » الأمريكية تمثيلاً صادقًا سريع الدلالة على الصور والنماذج التى تشاهد فى الحواضر الصغيرة بصفة خاصة ، حيث يبرز

الطبيب والقسيس والتاجر الميسور وأعضاء المجتمع الناجحون على العموم ، ولكنك لا ترى فيها تلك التحليلات النفسية العويصة التى أولع بها كثير من المحدثين بعد شيوع الدراسات التحليلية وانتشار مذهب « فرويد » وتلاميذه فى الآداب الأوربية والأمريكية ، فأنت إذ تقرأ روايات سنكلر تصادف تلك الشخصيات فيها كما تصادفها فى الحياة وتحبها أو تبغضها كما تحبها أو تبغضها بعد التجربة والمعاشرة ، ولا يفوتك أن تعرف نفوسها وضمائرها من طريق غير طريق التحليلات والبحث عن العقد النفسية ومركبات النقص وما إليها من مصطلحات الأطباء النفسانيين ، فإن طريقة سنكلر لويس فى التعريف بأبطاله تدور على حركاتهم الظاهرة التى تدل على نوازعهم الباطنة ، ورب لمحة حائرة أو رجفة عارضة أو دفعة عصبية تغنيك عن صفحات مطولة فى شرح العقد ومركبات النقص وبوادر الوعى الباطن أو الشعور المكبوت ، وما شابه هذا وأمثاله من المصطلحات .

ويبدو لنا أن سنكلر لويس قد استمد منهجه هذا من الصحافة والصور المتحركة فى وقت واحد ، فقد عمل فى كتابة الأخبار الصحفية قبل أن يتفرغ للتأليف ، وقد اتفق ظهور قصصه الأولى فى إبان الوقت الذى راج فيه عرض الروايات على اللوحة البيضاء ، فتعلم من الصحافة سرعة تمثيل الحوادث على النحو الذى يجتذب إليه التفات القارئ فى غير تعمق ولا إملال أو انتظار ، وتعلم من الصور المتحركة أن يهتم بالظواهر والحركات التى تقبل التمثيل بالإشارة ولا تحتاج إلى شرح ما وراءها من الأسرار والعلل ، وقد استفاد هذا المنهج من الصور المتحركة حين كانت الحركة فيها أهم من الكلام ، فلما ظهرت الصور المتكلمة بعد ذلك قيل إن روايات سنكلر كانت غنية بإشارات المؤلف عن إشارات المخرجين .

وخاصة أخرى من خواص هذا الكاتب فى مدرسة النقد الاجتماعى أنه يصف المجتمع الأمريكى بلا تحفظ ولا مجاملة ولكنه لا يستخدم وصفه لنشر دعوة أو خدمة مذهب ولا يتجه بالقارئ إلى اتجاه خاص لإبراز ناحية دون ناحية من نواحى الحياة الاجتماعية ، بل يصور ما يراه ويدع للقارئ أن يحكم

فيه حكمه ويقدر فيه تقديره ، وليس يعنيه الناس لأنهم يمثلون هذا النظام الاجتماعى أو لأنه يريد منهم أن يمثلوا نظامًا اجتماعيًا غيره ، ولكنه يعنى بالناس لأنهم ناس أو لأنهم أحياء يشعر بهم شعور الكائن الحى بما حوله من الكائنات الحية ، ويلمس فيهم مواطن الضعف الإنسانى الذى يلزم الأدميين حيث كانوا مع اختلاف الأنظمة والبيئات .

ويشبه سنكلر فى هذه الخصلة كثيرون ، فليس هو وحده الذى يصف المجتمع ولا يستخدم وصفه لنشر دعوة أو خدمة مذهب ، فقد اشتهر كثير من الروائيين بالوصف لمجرد الوصف والتصوير لمجرد التصوير ، إلا أن سنكلر لويس يخالف هذا الفريق كما يخالف فريق الدعاة والمبشرين بالمذاهب الاجتماعية ، لأنه لا يحسب من هؤلاء ولا من كتّاب البرج العاجى الذين تعنيهم أناقة الفن قبل مشكلات الحياة ، وإنما هو « كاتب أخبار » تهمه المشكلات التى تثير النفس وتستحث النبض وتبتعث الخواطر إلى التفكير ، فهو روائى غير فنان Artist وغير مصلح Reformer أو هو صحفى فى نطاق واسع تطل عليه مشغولا بما فيه ، وإن لم يكن من اللازم أن تشغل به كما يشغل الفنان المتأنق أو كما يشغل الداعية المتعصب لدعوة من دعوات الإصلاح .

من اتفاق المصادفة أن يعيش مع سنكلر فى الولايات المتحدة ، كاتب ينتمى إلى مدرسة النقد الاجتماعى ويشتهر باسم سنكلر أيضا ويخالفه فى منهجه أبعد خلاف .

هذا الكاتب هو أبتون سنكلر Upton Sinclair صاحب رواية الغابة ورواية النفط وكاتب السلسلة التى صدر منها حتى الآن ستة مجلدات فى أكثر من ثلاثة آلاف صفحة عن أسرار الحرب العالمية الأخيرة ، وكل ما يكتبه هذا الروائى ينصرف إلى غاية واحدة هى الترويج للشيوعية والحملة على نظام المجتمع فى الولايات المتحدة مستدلا بفساده على صواب المذهب الذى يدعو إليه .

لا يقل هذا الكاتب عن سميه فى المقدرة والمكانة ، ولعله أقدر منه على الإحاطة بموضوعه والتشعب به إلى جميع جهاته ، وقد حصل على جائزة بولتزر Pultizer الأمريكية وهى تساوى جائزة نوبل فى قيمتها الأدبية ، ولا فرق بين

الجائزتين من هذه الوجهة إلا أن جائزة نوبل محرمة على من ينشرون الدعوات التى لا تخدم قضية السلام ، وأن جائزة بولتزر لا تحرم على أحد يجيد الكتابة فى بابه أيًّا كان مذهبه فى قضية السلام أو دعوات الإصلاح .

ويكبر أبتون سنكلر سميه ببضع سنوات ، ولا يزال كما كان فى شبابه طرفة فى غرائب الأطوار وشدة الإصرار ، ومن غرائب أطواره أن الناشرين أضربوا عن بيع كتبه فحملها على ناقلة (أو عربة يد) وخرج بها فى شوارع بوستون ينادى عليها كما ينادى باعة الفاكهة والخضر على بضاعتهم فى الطرقات ، وأنه مادى فى اعتقاده ولا يكف مع هذا عن التجارب فى التلباثى أو الشعور على البعد وما إليه من تجارب الروحيات والعقليات ، وأنه على كفره بالأديان يحرم الخمر على نفسه أشد التحريم .

ونحن – بقدر ما نستطيع الحكم على الرجل فى كتاباته وسيرته – نرجح أنه مخلص فى دعوته وليس من أولئك المأجورين الذين يبشرون بالمذاهب الاجتماعية غير مؤمنين بشىء منها ولا بشىء من أغراض الإصلاح كائنًا ما كان ، وقد حرك البرلمان الأمريكى بحملاته الخالصة فبادر إلى وضع القانون الذى يوجب على الدولة السهر على موارد الطعام وتفتيش المعامل التى تصنع الأطعمة المحفوظة ، وكانت قبل ذلك معفاة من الرقابة والتفتيش .

أما الفارق بين سنكلر هذا وسنكلر ذاك ، وكلاهما من مدرسة الهجاء الاجتماعى ، فيظهر من تقليب بضع صفحات من كلا الكاتبين .

فلويس سنكلر – كما علمنا – ينقد المجتمع ولا يتعصب لدعوة من دعوات الإصلاح . أما زميله أبتون سنكلر فلا يخط صفحة ولا ينقد عيبًا ولا يصور بطلا إلا ليخرج من كل ذلك إلى نتيجة واحدة وهى التبشير بالشيوعية كأنها الكمال الوحيد الذى لا علاج لنقائص المجتمع غير علاجه ولا محل للنقائص الإنسانية فى ظله .

فتارة يكتب الرواية ليثبت فيها تواطؤ رجال الدين مع أصحاب الأموال ، وتارة يكتبها ليثبت تواطؤ الصحافة معهم وتفاهم القائمين بها على خدمتهم ، وقد يكتب الرواية فى ستة مجلدات ليرجع بالحروب العالمية إلى التدبير المقصود الذى

يدبره أقطاب رأس المال لإقامة الحكومات أو إسقاط الحكومات ، وهو يأبى أن ينظر إلى الحوادث والأخلاق من جانب غير هذا الجانب أو من زاوية غير هذه الزاوية ، كأنما الإنسان كله والأمم كلها « حسبة اقتصادية » لا أكثر ولا أقل ، وكأنما كان أصحاب الأموال معصومين من الخطأ فى التدبير فلا يختل حسابهم يومًا فى غاية يرمون إليها بعد عشرات السنين أو بعد مئات السنين !

هذان كاتبان من مدرسة فنية واحدة بينهما هذا الفارق فى المنهج والغاية ، وليست عندى المراجع التى تقتبس منها الشواهد على المنهجين والغايتين منقولة من كتب هذين المؤلفين ، لأننى أكتب عنهما فى أسوان وأرجع فى شأنهما إلى ما أذكره دون ما أطالعه بين يدى ، ولكننا فيما أرى لا نحتاج إلى مطالعة الكتب لتقرير هذه الحقيقة عن منهج سنكلر الذى ختم طريقه ومنهج سنكلر الذى لا يزال فى الطريق ، ولا نحتاج إلى الشواهد المفصلة لوضعهما معًا فى موضعهما من الأدب الغربى الحديث فمن المتفق عليه أن أمريكا لم تتجنب فى العصر الحاضر من يعلو فى درجات الأدب على الدرجة الوسطى ، وأن خير ما يوصف به الكاتب عندهم أنه مستقل فى نهجه غير مقلد فى أسلوبه ، فإن الافتتان بمحاكاة القصاصين من الروس والفرنسيين قد طغى على أقلام كتاب الرواية والقصة الصغيرة حتى ندر فيهم المستقل المطبوع على الابتكار ، وكثر فيهم من لا تسمو همته إلى منزلة أكبر من أن يقال عنه إنه بلزاك أمريكا أو شيخوف العالم الجديد ، ولعل حب الإبعاد والإغراب هو الذى جنح بهم إلى محاكاة الروس كما أن حب الزى و« المودة » هو الذى جنح بهم إلى تلقى الأزياء الأدبية من باريس ، فلا غرابة فى كتابتهم كما يكتب الأدباء المقروءون باللغة الإنجليزية وهى لغة الإنجليز والأمريكيين ، وإنما الغرابة أن يقال عن الأمريكى أنه يشبه شيخوف أو أنه يشبه بلزاك ، ومن فضل سنكلر وسميه أنهما مستقلان لا يقلدان أحدًا على سنة الإغراب والافتتان ، أو على السنة المأثورة عن « تقاليع » الأمريكان .

ذكرى فردى

احتفلت الأندية الفنية فى هذا الأسبوع بذكرى الموسيقى الكبير جيوسيبى فردى لانقضاء خمسين سنة على وفاته فى أوائل السنة الأولى من القرن العشرين .

وفردى هو الموسيقى الإيطالى الذى يصدق عليه أننا سمعنا من موسيقاه ما لم نسمعه من موسيقى الملحنين فى بلادنا من عهد عبده ومحمد عثمان إلى عهد الشجاعى وزكريا أحمد وعبد الوهاب ، لأن فردى هو واضع السلام الوطنى الذى يسمعه المصريون فى كل استفتاح وكل ختام .

ولا يزال جانب من هذا الرجل المتعدد الجوانب صالحًا للتحدث عنه فى هذه المرحلة من مراحل نهضتنا الفنية ، ونريد به جانب التجديد أو جانب الآراء والنظريات التى تتعلق بالتجديد فى كل فن جميل ، ولا سيما فن الغناء المسرحى والتعبيرات الموسيقية فى الروايات على الإجمال .

لقد ولد فردى الإيطالى وفاجنر الألمانى فى سنة واحدة ، وكلاهما نموذج خالص لروح بلاده فى فنه ، ولكنهما مع هذه القدرة المأثورة عنهما فى التعبير عن الروح اللاتينية والروح الجرمانية « شخصيتان » عظيمتان يعرف كل منهما بمبتكراته ومزاياه ، ولا ينحصر عمله فى تمثيل الروح القومى والتعبير عن الشعور الوطنى فى زمانه ، فكلاهما أعطى قومه كما أخذ ، وكلاهما أضاف إلى فن بلاده كما استفاد منه . ومرجع ذلك إلى فضيلة العبقرية العالية التى برزت فى كلا الرجلين غاية البروز على اختلاف المنحى والوسيلة ، وفضيلة العبقرية أنها فى وقت واحد « شخصية » وإنسانية عالمية . فهى تستوفى التعبير عن قومها

وسلالتها وتزيد على هذا التعبير تعبيرًا آخر يشمل الإنسانية جمعاء عدة عصور .

وقد جدد فردى موسيقى بلاده ولكنه لم يقلبها ولم يخرج بها عن طبيعتها ، وخير ما صنعه لتلك الموسيقى أنه نفخ فيها من حياة القوة والشباب ومسح عنها شحوب النعومة والهزال ، فجعلها إيطالية موردة الخدين ملتمعة العينين ، معتدلة القامة ، سديدة الخطوة . تمشى فى الطريق قدمًا ولا تتعثر هنا أو هناك ، وقد كانت قبل ذلك إيطالية صفراء وانية ، أو حمراء من صبغة الطلاء .

فإذا سمعت موسيقاه قلت : أجل ! هذا فردى ! وهذه إيطاليا ، ثم أضفت إليها فى ناحية من نواحيها العامة إنها هى الإنسانية التى تلمح سيماها فى كل أمة وفى كل زمن .

وهكذا يكون كل تجديد مستمد من طبيعة الحياة والأحياء : مزيجًا من شخصية الفنان وروح الأمة وطبيعة بنى الإنسان .

ولم يستطع فردى أن يكون كذلك إلا لأنه رجل متعدد الجوانب واسع الأفق جامع فى موسيقاه لأذواق الفنون والآداب التى لا تنحصر فى صناعة الأنغام والألحان ، فهو خبير بالتمثيل مطلع على أدب شكسبير ، ملم بأطراف الآداب الفرنسية والألمانية ، مشتغل بالسياسة الوطنية بل مشتغل بالزراعة على نحو يتوسط فيه بين أناقة الهواة وخبرة الفلاحين المنقطعين للحرث والحصاد .

وقد كان اسم فردى Verdi يومًا من الأيام عنوانًا للوحدة الإيطالية التى تنضوى إلى تاج واحد هو تاج فكتور عمانويل ، فإذا هتفت الجماهير ليحيى « فردى » فهى تعنى ليحيى « فكتور عمانويل ملك إيطاليا » .. إذ كان كل حرف فى اسم الموسيقى الكبير يشير إلى كلمة من تلك الكلمات بالإيطالية وهى كلمات : Vittorio Emanuele RE D'ITALIA .

وكانت الرقابة تتعرض أحيانًا لألحانه مخافة أن تلهب حماسة الجماهير فى المسارح العامة فتنطلق بالهتاف وتندفع إلى الثورة والهياج . فكانت تسومه تعديل الألحان وتعديل الكلمات ، وأصعب شىء على الفنان أن يسام تعديل اللحن مع تعديل الكلام فى عمل كبير متناسق الأجزاء كمواقف التمثيل فى الروايات ..

وتعدد الجوانب هو الذى جنح بهذا العبقرى إلى كراهة النظريات والمذاهب والارتفاع بالفن إلى مقام لا يتقيد فيه بوجهة دون وجهة وتعريف دون تعريف ، فلا خير فى فن تتسلط عليه « النظريات » وتقسره على التحول عن مجراه الذى توحى به الفطرة الحرة والبداهة المستقيمة وإنما الخير كل الخير فى النظريات التى تنير الطريق كما تنير المصابيح ، ثم تدع لعابر الطريق أن يسلكه على هداه .

أرسل إليه بعض المؤلفين كتابًا يسأله أن يقرأه وأن يبدى له رأيه فى أحكامه وتعليقاته ، فكتب إليه (فى ٢٠ أكتوبر سنة ١٨٨٣) يقول : « أرجوك المعذرة إذا أنا قد سوفت إلى هذه اللحظة فى شكرك على الكتاب الذى تفضلت بإرسالة إلى ، وأرجوك المعذرة مرة أخرى إذا أنا لم أستطع أن أجيبك إلى ما طلبت من إبداء الرأى فى مضامين هذا الكتاب .. إننى فى الموسيقى – وفى المسائل التى تتصل بالموسيقى – لاثقة لى بأحكامى ولا ثقة لى بأحكام الآخرين ، ولعلك تذكر الآراء التى أبداها ويبر وشومان ومندلسون ، عن روسينى وماير بير وغيرهما من الموسيقيين ، فهل تجد هناك مسوغا للاعتماد على حكم ملحن ينقد غيره بعدما علمت ؟ .

وكتب قبل ذلك بخمس عشرة سنة يوم استوى على قمة المجد وفرغ من اختيار القدوة والأسلوب فقال : « إننى أصارحكم أننى على استعداد لاتباع الموسيقيين المستقبليين فى حماسة وغيرة على شريطة واحدة ، وتلك هى أن يأتونا بموسيقى هى موسيقى ، وليست مجرد مذهب أو نظرية » .

ولو شاء فردى لأسقط آراء النقاد فى زمانه بدليل واحد يعرفه حق المعرفة ، وهو دليل الإخفاق الذى سجلوه عليه فى امتحان الترشيح لمعهد ميلان ، فقد قيل له فى مستهل شبابه إنه لا يصلح للمعهد ولا يصلح للتفوق فى الموسيقى ، وحرموه دخول المعهد لنقص فنه وزيادة سنه ، إذ كان قد جاوز السن المطلوبة بأربع سنوات ، ثم نسى الناس أساتذة الامتحان ونسوا طلابه الناجحين ، وبقى اسم فردى فى القمة العليا بين أسماء الملحنين الخالدين .

لا جرم إذن أن يكون فردى عظيم التعويل على السامعين قليل التعويل على الخبراء الناقدين ، فربما خطر له أن يتهم نفسه أو يتهم النقاد أو يتهم القائمين

بالغناء والتمثيل فى رواياته قبل أن يتهم جمهور المستمعين ، وقد اعترف مرة بأن إحدى ملحناته ترافياتا Traviata كانت خيبة تامة Fiasco فى مدينة البندقية ، ولكنه كتب إلى صديقه موزيو يسأل : أتراها غلطتى أم غلطة المنشدين ؟ ثم قال : إن الزمن هو الحكم الأخير .

ولعل الصدمة الأولى التى أصابته من حكم النقاد هى التى جعلته يغلو فى التعويل على المستمعين دون أدعياء الخبرة والنقد وأساطين التلحين المعترف بهم فى هذا المجال من أمثال مندلسون وشومان ، فلا ترى كلمة تتردد فى رسائله كما تتردد فيها كلمة « الوقع » L'effetto وما يتوخاه من العناية بالوقع فى أعمال الإيقاع ، وعنده أن المستمعين الذين يهتمون بالفن غير محترفين ولا متعصبين أصدق حسًّا وأدنى إلى الإنصاف من الناقد المحترف ، ولاسيما إذا أطبق هؤلاء المستمعون فى مختلف البلاد على الارتياح إلى نمط من الفن جديد لم يألفوه بالتواتر والتكرار .

وفى اعتقادنا أن الرجل كان على صواب ولكنه لم يكن كل الصواب ، فمما لا جدال فيه أن المستمعين كان لهم فضل فى الانتباه إلى كثير من الآيات الفنية التى تجاهلها النقاد المحترفون أو تعصبوا عليها بغير دليل غير دليل الجمود على القديم ، فإذا صح أن الفضل للنقد فى إبراز كثير من الملكات المجهولة فقد صح مثله أن النقد قد جنى على ملكات أخرى لا تقل عن تلك الملكات ، فلم ينصفها أحد غير جمهرة المستمعين المنزهين عن العصبيات واللبانات .

ولا يطرد القياس فى جميع الأحوال والأزمنة ، فليس الجمهور الجاهل كالجمهور الذى تهذب واستطاع التمييز بين النقائض والأضداد ، وليس الناقد العليم المنصف كالناقد الدعى المسخر لتجار المسرح وأسواق الأغانى والألحان ، وحيثما اتفق صدق النقد وصدق الاستماع فذلك هو الغاية التى لا يعلى عليها فى صدق التمييز والاختيار وصدق الشهادة لدعاة التجديد والابتكار .

وكثيرا ما يكون الغرور حائلا بين الناقد المحترف وبين الحقيقة الواضحة التى كان خليقا أن يدركها لولا اعتداده بقواعدة وأحكامه وترفعه عن نظرة الفطرة السليمة التى تتفق أحيانا لجمهرة المستمعين المهذبين ، ومن أمثلة ذلك تعقيب

المجلات الفنية فى لندن على الحفلات الأولى التى قوبل بها فردى فى العاصمة الإنجليزية ، فإن ناقد « السجل الشهرى للموسيقى Monthly musical Record أعجب بوصول الألحان الإيطالية إلى بلاده بعد سنة من سماعها فى بلادها ، فقال إن تحفه الموسيقى الألمانى فاجنر المعروفة باسم لونجرين Lohengrin قد استغرقت خمسا وعشرين سنة فى طريقها إلى مسارح الإنجليز ، ثم تساءل مستغربا : كيف يكون الجمهور الذى أعجب بلونجرين هو الجمهور الذى أعجب بألحان الجنازات ؟!

هذه غرابة معقولة إذا أخذناها على ظاهرها ، إلا أنها تصبح شيئا مألوفا إذا اعتبرنا أن جماهير المستمعين المهذبين قلما تستولى عليهم مدرسة فنية واحدة فى جميع الأوقات كما تستولى على طائفة من النقاد والمحترفين ، وأن الأصل فى الفنون أن يكون « الجمهور » مستعدًّا للسماع من كل فريق ، وأن المدارس المختلفة تنصب فى هذا العالم المتسع لجميع الجداول والتيارات ، فإذا وجد فى العاصمة الإنجليزية من يرضى عن فاجنر ويرضى عن فردى فلا تناقض فى هذا الاتفاق ، بل لا تناقض فيه حتى لو كان الجمهور واحدًا غير منقسم إلى طائفتين أو مدرستين ، لأن التعصب للمدارس الفنية لا يبلغ مداه فى الجماهير المستمعة كما يبلغ مداه فى طوائف المحترفين المتعصبين لمدارسهم عن جمود أو عن انتفاع واستغلال .

أنقول إن الجماهير الفنية جميعا من هذا القبيل ؟

كلا . لا نقول هذا ولا نقبل القول به على علاته ، وكل ما نقوله إن وجود الجمهور الذى من هذا القبيل ليس بالمستحيل ، وإن حظ فردى مع تعدد جوانبه هو الذى هيأ له هذه الفرصة التى لا تتاح لكثيرين ، ونزيد على ذلك أن الجمهور الذى نعنيه لم يكن وقفا على العاصمة الإنجليزية فى منتصف القرن التاسع عشر ، فنحن فى مصر قد عرفنا جمهورًا فنيا كهذا الجمهور فيما اختبرناه وكررنا اختباره ، فلو أن باحثًا أراد أن يعتمد على هذيان الأدعياء المتصدين للنقد فى بلادنا لخيل إليه أن القراء فى البلاد العربية مجمعون على إنكار المدرسة الشعرية الحديثة التى يشترك كاتب هذه السطور فى تقديمها وشرح مقاصدها منذ جيل ،

ولكن تسعة دواوين تنفد وتعاد على التوالى ويتطلبها قراؤها فى أنحاء البلاد العربية بغير إعلان ولا تهويش هى الحجة القائمة على أولئك الأدعياء ، وهى الشهادة الكريمة للقراء الذين لا يسلمون عقولهم لسماسرة النقد والإعلان ، وهى أدلةعربية مصرية تضاف اليوم إلى الأدلة الأوربية الإيطالية التى نحييها اليوم فى ذكرى الموسيقى الكبير .

obeikandl.com

جائزة « نوبل » ودلالتها الأدبية

أذكر أننى كتبت قبل الآن كلامًا موجزا عن جائزة نوبل ودلالتها الأدبية ، ويؤخذ من بعض الأسئلة التى أتلقاها وبعض التعليقات التى نقرؤها فى الصحف أن هذه الجائزة لا تزال مجهولة الدلالة عند كثير من القراء ، وأنهم يفهمون منها أنها إذا وجهت إلى كاتب أو شاعر كان توجيهها إليه دليلاً على أن لجنة نوبل تعتبره أعظم الأدباء فى زمانه ، وتفضله من الناحية الفنية على أقرانه وزملائه فى الشعر أو فى النثر أو فى صناعة الأدب على الإجمال .

هذه الفكرة خطأ يقع فيه من لم يراجع شروط هذه الجائزة فى الأدب أو فى غيره من ميادين الثقافة ، فإن لجنة المحكمين تلاحظ فى منحها أن يطلبها مصدر رسمى كالمصادر الوزارية أو النيابية وما إليها ، ثم تلاحظ فى موضوع الكتابة أن يكون مثاليا مساعدا على خدمة السلم ونشر الأمل والتفاؤل ، أو يخلو على الأقل من إثارة الفتن والسعى بالعداوة والبغضاء بين الشعوب والطوائف مع خدمة المجتمع بتعظيم المثل العليا وتزييف العيوب والمنكرات التى تخل بالفضائل الإنسانية .

وقد وضعت الجائزة أصلا على سبيل التكفير عن صناعة المفرقعات والمتفجرات التى تستخدم فى الحرب والتخريب ، وكان المهندس نوبل الذى تسمى الجائزة باسمه مديرًا لمعامل كبيرة تصنعها وتبيعها ، ولم يكن فى وسعه أن يقصر استعمالها على التعمير والإصلاح .

فالخدمة الإنسانية مقدمة فى جائزة نوبل على المقدرة الأدبية والفنية ، وإذا قيل إن أديبًا من المشهورين ظفر بهذه الجائزة فلا يفهم من ذلك أنه أقدر الأدباء وأعظمهم فى زمنه أو فى وطنه ، وإنما يفهم منه أنه طلب الجائزة وأنه استحقها

بشروطها التى تقدمت الإشارة إليها ، وقد يكون فى وطنه من توافرت له تلك الشروط ولكنه لم يطلب الجائزة أو لم تطلب له بالوساطة الرسمية المعهودة ، وقد يكون فى زمنه من هو أعظم منه قدرًا وأرفع منه أدبا ولكنه لا يتوخى بكتابته غرضا من الأغراض التى كان يتوخاها صاحب جوائز السلام .

لهذا لم تمنح اللجنة جائزتها الأدبية أحدًا من النازيين أو الفاشيين أو الشيوعيين ، إذ كان الأدباء المبشرون بتلك المذاهب يعظمون الحروب أو يتوقعون الفتنة ويعلقون عليها آمال الإصلاح ، ولهذا صدر الأمر فى عهد هتلر بتحريم الترشيح لجائزة نوبل على الأدباء الألمان ، واتخذ الروسيون جائزة فنية تنوب عنها فى بلادهم وسموها بجائزة ستالين .

من هنا يتضح جواب السؤال الذى جاءنى من بعضهم يسألنى فيه :

ألم يكن قبل سنة ١٩٣٠ أحد من الكتاب الأمريكيين يستحق هذه الجائزة الأدبية؟ وهل سنكلر لويس هو أعظم الكتاب فى الولايات المتحدة حتى نال هذه الجائزة قبل غيره من الكتاب والشعراء فى بلاده ؟

فمن عرف ما تقدم عرف أن مكافأة سنكلر لويس لجائزة نوبل ليست دليلا على أن لجنة المحكمين فى السويد تحسبه أعظم الكتاب فى بلاده أو فى زمانه ، ولكنها دليل على شىء واحد لا تتخطاه ، وهو أن سنكلر لويس قد طلبت له هذه الجائزة فى سنة من السنين ، وأن شروطها توافرت له بين المرشحين لها فى تلك السنة ، فاستحقها ولم يستحقها الآخرون .

وتفصيل ذلك بعبارة أخرى أن الجائزة ربما طلبت لسنكلر لويس فى سنة سابقة مع مرشحين آخرين فرجحتهم اللجنة عليه ، وأن الذين رشحوا معه لجائزة سنة ١٩٣٠ ربما كانوا أقل منه بمحض المصادفة والاتفاق ، فتخطاهم المحكمون وتوجهوا بها إليه .

والمعلوم عن أولئك المحكمين أنهم نخبة من الثقات اتصفوا بالفضل والمعرفة والنزاهة ، ولكنه ما من حكم يسلم من الخطأ أو من الانقياد لهوى الساعة ، وربما كان لهوى الساعة سلطان على الثقات الفضلاء ، كسلطانه على القاصرين فى مراتب الفضل والنزاهة ، فليس بالممتنع على المحكمين فى اللجنة السويدية أن

يرجحوا المفضول على الفاضل ، وأن يدخلوا فى حسابهم أمورا تنحرف بهم عن الصواب ، عامدين إلى ذلك أو غير عامدين ، وملتمسين له عذرا من المصالح الإنسانية أو غير ملتمسين .

أما منزلة سنكلر لويس الأدبية فليس فى النقاد من يذكره بين بلغاء الأسلوب أو ذوى الملكات العالية ، وليس فيهم من يضعه فى صف أديب عظيم كتوماس هاردى متفوق فى القصة والشعر والنظرات الفلسفية ، وليس فيهم بعد هذا وذاك من يعجب لأنه نال جائزة نوبل ولم ينلها توماس هاردى ومن هو على شاكلته ، لأنهم يقيسون الجائزة إلى شروطها وطريقة طلبها ولا يقيسونها إلى العلو فى آفاق الأدب والحكمة ، ويزعم ناقد أمريكى كبير أن إعجاب الأوربيين بسنكلر لويس سخرية منهم بالأمريكيين . إذ كانت أمريكا فى نظر أبناء أوربة « همجية ناشئة » وكان سنكلر لويس شديد السخر بنفاق أبناء وطنه شديد الإنحاء على نزواتهم وبداوتهم التى يضحك منها الأوربيون .

هذا الناقد الأمريكى هو الدويج لويسون صاحب كتاب « قصة الأدب الأمريكى » الذى يزن سنكلر بميزانه ولا يتعصب لأبناء قومه . وقد قال عنه « إن توجيه جائزة نوبل إليه فى سنة ١٩٣٠ كان محسوسًا به بين ذوى الرأى والذوق من أبناء وطنه كأنه مفارقة وسقطة فى وقت واحد » وتعليل ذلك عند هذا الناقد الحصيف أن سنكلر محدود الفكر ، قريب الغور ، منعزل عن الآفاق الرفيعة والأغوار العميقة ، وهو فى الواقع كما وصفه نقادة قومه . ولكن الرجل لم يدع قط مزية من هذه المزايا لنفسه ولم نعرف أحدا من المعجبين به يدعيها له أو يقرؤه من أجلها ، ولم تزعم لجنة المحكمين فى السويد أنها منحته الجائزة لاتساع أفقه وعمق غوره ، وإنما قالت إنها تمنحها إياه لقدرته الحية على تصوير الحياة وخلق النماذج الإنسانية التى تمازجها الفطنة الناقدة والفكاهة ، وتلك ولا ريب صفات لم ينكرها عليه ناقد منصف من أبناء بلاده أوالغرباء عنها .

والظاهر أن عزلة أمريكا السياسية هى التى صرفت أنظار المحكمين عن أدبها وثقافتها بعد الحرب العالمية الأولى ، فقد كانت لجنة نوبل حريصة جدًّا على

إشراك أمريكا فى مشكلات العالم القديم منعًا للحروب وكبحًا للعدوان وتوسلا إلى الوحدة العالمية فوجهت جائزة السلم إلى رؤسائها وزعمائها الذين اشتركوا فى شئون العالم القديم من أمثال روزفلت الكبير وويلسون وداوس وكلوج ، ثم صدمتها نكسة الأمريكيين إلى العزلة بعد رفضهم المساهمة فى عصبة الأمم ووقوفهم موقف الحيدة من الشئون العالمية فى بلاد المشرق والمغرب ، فلما خرجت الولايات المتحدة من هذه الحيدة فى علاقتها بالشرق الأقصى ووقفت هنالك موقف المقاومة لسياسة الروس واليابان على الخصوص زالت الحواجز وتقارب الشعور ، وكان أسبق الناس إلى الاغتباط بهذه الخطة الجديدة أبناء السويد الذين ينظرون إلى الروس على الدوام نظرة المحاذرة والانقباض ، فتلاحق توجيه الجائزة الأدبية إلى الأمريكيين وناها حتى الساعة خمسة من أبناء الأمريكتين هم سنكلر لويس وأوجين أونيل وبيرل بك وتوماس اليوت وجبرييلا مسترال .

أما أثر الخوف من روسيا ، أو أثر السياسة الروسية والأمريكية فى أحكام لجنة نوبل فيبدو واضحًا جليا من مبدأ عهدها إلى هذه السنة الأخيرة ، فهى لم تمنح تولستوى جائزتها مع خدمته للسلم وشهرته العالمية ، وأكثر من منحتهم الجائزة بعد الثورة الشيوعية كان لهم موقف استنكار لسياسة روسيا أو لسياسة الشرق الأقصى . فالكاتب الروسى إيفان بونين من الروس البيض المنفيين المغضوب عليهم فى سجلات الكرملين ، وبيرل بك تتعصب للصين وتؤيد الحملة الأمريكية على اليابان والروس ، وأندريه جيد ذاعت له رسالتان بعد عودته من رحلته الروسية تنحيان على النظام الشيوعى وتعربان عن خيبة الأمل فيه ، وغير هؤلاء من الظافرين بجائزة السلام مشهورون بالعمل على ضد مذاهب الثورة والانقلاب على اختلاف الخطط والآراء .

ومن الواجب عند النظر فى دلالة هذه الجائزة وغيرها من الجوائز الأدبية والفنية أن نعود إلى شروطها وأساليب طلبها والترشيح لها ، وأن نذكر أبدًا أن أهواء السياسة آفة لا يسلم منها المحكمون فى عصر قديم أو حديث ، وأن نتخذ آراء هؤلاء المحكمين قرينة مرجحة ولا نجعلها حجة فاصلة ، ثم ينبغى أن نعلم

على التحقيق أن الآداب العالمية قد عرفت منذ سنة ١٩٠١ التى بدأ فيها توجيه جائزة نوبل إلى الأدباء والفضلاء مئات من العباقرة والنابغين يفوقون كل أديب من أولئك الخمسين الذين خصتهم اللجنة السويدية بتمييزها ، فمن أراد الجوهر دون العرض فلينظر إلى أعمال أولئك العباقرة والنابغين قبل أن ينظر إلى أقوال المحكمين فى أعمالهم ، فإن الفضل يعرفه ذووه ، ومن لم يكن من ذوى الفضل فشهادة الناقدين لا تغنيه ولا تهديه ، وقد تضله كثيرا عن الفضل وذويه .